من تراب الطريق (٥٢٣)

رابطة العقائد(*)
(١)

العقيدة أو العقائد السائدة فى أى جماعة من الجماعات ، عبارة عن رابطة بين معتنقيها .. وهى لا تكون عقيدة إلاَّ إذا صارت رابطة بين فئة من الناس يشتركون فى اعتناقها .. أى التقيد العميق بها والشعور القوى بأن تمسكهم بها يميزهم عن غيرهم ممن ينتمون إلى عقائد أخرى أو لا ينتمون إلى أى عقائد .

وهذا الشعور هو العنصر الأهم الحاضر دائما فى كل عقيدة وبدونه تصير مجرد فهم أو رأى أو وجهة نظر فردية فى موضوع أو موضوعات قد يستجد لدى صاحبها ما يسمح له بتعديل موقفه منها أو تغييره ، أو تركه كليةً .. دون أن يحس بكبير حرج أو تحرج أو خوف أو خشية من اتهامه بالخيانة أو المروق .

وقوة الشعور بهذه الرابطة ، لا تتأثر متى وجدت تأثرا كبيراً بشواهد صحة أو بطلان المفاهيم المتعلقة بالعقيدة التى تتداول بين المنتمين إليها . علما بأن تلك المفاهيم عرضة باستمرار للزيادة أو الحذف أو التحوير والتعديل وتغيير مركز التأكيد من عنصر إلى عنصر آخر فيها خلال توالى الأحداث والظروف وانتقال حياة الآدمى من زمان ومكان إلى غيرهما بلا توقف .. وهذا كله لا سبيل إلى مصادرته أو تفاديه أو منع وقوعه حتى مع الاجتهاد فى التمسك بأصل العقيدة والمغالاة فى محاولات التزام هذا الأصل والثبات عليه وعدم تجاوزه بتاتا .

والعقيدة الدينية شأنها فى هذا كله شأن العقائد بعامة .. تقوى أو تضعف تبعا لقوة أو ضعف الشعور بالرابطة التى تربط معتنقيها بها ، وتنفرد عادة

(*) المال ١٤/٩/٢٠١١

باتصالها الوثيق بالماضى وبالآباء والأجداد وبالتاريخ وأخباره عن أمجادها ومآسيها ملونة بألوان العاطفة والخيال .

وقد مرت أزمنة طويلة كانت فيها مفاتيح عواطف الآدمى وسلوكه مستمدة من عقيدته الدينية التى مدت تعاليمها وسلطانها إلى دنيا الآدمى وأخراه بغير استثناء .. ثم تغيرت الحال تباعا إلى انفصال المجتمع المدنى بحكامه ومحكوميه انفصالا يكاد يكون تاما عن الديانات ونظمها وتعاليمها وتاريخها وأفكارها فى معظم بلاد العالم المتحضر .. واعتاد الناس ذلك سيما من القرن الماضى .

وأدى ذلك إلى إضعاف قوة الفروق المبنية من قديم على الاختلاف فى الدين أو فى الملة أو المذهب .. وذلك فى الأحوال العادية التى لا يشكو فيها عامة الناس من الحاجة أو النقص أو البطالة أو الغلاء .. أو من الاستبداد والظلم والاضطهاد والمصادرات وتكبيل الحريات ومحاصرتها والتهجم عليها .. وتضييق العالم على سعته على الآمال التى بدونها تنكمش وتضوى الأرواح والعقول والأنفس .. وفى هذه البلايا يعود عامة الناس غالباً إلى الدين أو الملة أو المذهب ، ولكن هذه العودة غالباً ما تكون مليئة بالتعصب تبعاً لما تتخيله العامة بعد طول ترك وإهمال وجهل .. وتسلم زمامها لمن تجده قريباً منها من رجال الدين الذى كثيراً ما يفرح بعضهم بالفرصة الطارئة مع قلة حيلتهم وقصر نظرهم وارتكانهم فى معظم أمورهم إما إلى الغيب وإما إلى الدسائس والفتن .. وفى مثل هذه الأحوال نشاهد كثرة اجتماعات المتدينين حول كهنتهم أو مشايخهم ، وتحمسهم تحمس كهنتهم أو مشايخهم لأمور بعيدة لا شأن لها بالأسباب الواقعية لأزمات البطالة أو الحاجة أو

الغلاء أو الاستبداد أو الظلم والاضطهاد .. ومن اللافت أنه سرعان ما يُصْرف اهتمام العامة عن بلاياهم وضنكهم إلى الأفعال وردود الأفعال بينهم وبين الحكومات الظالمة ومع حفظة الأمن التابعين لها ، ويختلط فى هذا كله ضرورات الثأر والانتقام ووضع الخطط لذلك والاستعانة بذوى الخبرة من الداخل والخارج فى إطار ما يستطيعون الحصول عليه من المعونات والتكريسات ممن يحبون الاصطياد فى الماء العكر ! حينذاك يحل القلق العام وعدم الاستقرار مع استفحال المشاكل وازدياد المغارم ، وفرض المزيد من القيود والأعباء ، وكثرة الضحايا والتضحيات بتوالى الاضطرابات والفتن .. مما يجعل الأزمات والشدائد الجديدة أفحش حجماً واحتياجاً للعلاج من السابقة عليها .. وذلك لغياب الصبر والتعقل وصعوبة ضبط الغرائز والعواطف واستحالة التساند والتآزر بين الجميع !

هذا والروابط المبنية على العقائد ، خاصة العقائد الدينية ، تشبه الجَزْر إذا لم تلاق من المحيط ترحيبا ويلقى منها نفس الترحيب والتعاون والمعايشة القائمة على الاحترام عند ذلك يحدث التعادى بسبب عُقدٍ لم تنحل مع المعاشرة والزمن ، ويصير الميدان ميدان سيطرة لفريق متفوق عملا على فريق ، أو سيطرة لأغلبية على أقلية يلوك فيها الجانب المستضعف ضغائنه ويمضغ أحقاده باستمرار .. لأنه يواجه فى كل ساعة مرارة هوان لا يستطيع ابتلاعها ولا نسيانها .. وقد شوهد شىء من ذلك إلى وقت قريب بين الأغلبيات البيضاء والعناصر الملونة ، أو بين الأغلبية المسيحية وبين البروتستانت والعكس . وهذا فيما يبدو شىء يصعب علاجه لأن قوامه تلقين البيوت والعائلات منذ الحداثة .. وهو تلقين شعبى عاطفى خالٍ من التحقق والتحقيق يجرى وينتقل من جيل إلى جيل ولا يجد فى الغالب واقعا معنيا به يكفكفه أو يكذبه ويزيله ويمحوه .

من تراب الطريق (٥٢٤) رابطة العقائد (*) (٢)

لا غرابة فى أن أول ما يفكر فيه المستضعفون ، هو الرد على العداوة بمثلها ، واستعجال اليوم الذى يستطيعون الرد فيه لغرمائهم على ما لاقوه ، آملين أن يردوا إليهم الصاع صاعين ، وقد يفكرون فى ترك البلد الذى تعرضوا فيه للاحتقار والامتهان ، إلى بلد آخر ينفردون فيه بالسلطة والنفوذ ، ويشعرون فيه بكامل قيمتهم .. مصطنعين لأنفسهم وطنا خاصًا بهم سواء بالشراء أو بالحرب أو بهما معا . ولكن أكثر ما يلجأون إليه هو استثارة الظروف التى تعرضوا فيها للاضطهاد غير العادى ، وللمحن التى صادفتهم ، والإلحاح فى التذكير بها كيما توقظ فى بنى جنسهم أو جلدتهم الإحساس بالخطر العام المحدق بهم ، وكيما تقوى إحساسهم بقوة الرابطة العقائدية التى تربط بينهم ، سواء من تعرضوا منهم لهذه المغارم والأخطار، ومن لم يتعرضوا لها .. وقد يؤدى ذلك فى نظرهم إلى تكاتف فى موقف جماعى يوقف الجانب المتسلط عند حده .

على أن هذا التكاتف لم يحدث تاما كاملا قط ، ولم يحصل إلاّ ناقصا وغير نهائى ولا يستمر قويا إلاّ لأجل محدود ، تعود بعده حالة الهوان أو الامتهان كما كانت عليه ، وقد تمتد لسنين أخرى طويلة ، تتكرر فيها المعالجة غير الناجعة ، ولا تنقطع فيها الشكوى لأن أسبابها قائمة لم تنقطع .. وهذا الاشتباك بكافة صوره المعنوية والمادية ، باق فى الجماعات ما بقى الالتفات

(*) المال ١٥/٩/٢٠١١

إلى نداءات الماضى وأحقاده من جانب ، وإلى افتئات الماضى وغروره وغطرسته من الجانب الآخر ، وعدم الاقتدار على تركيز الالتفات والإرادة والجهد من الجانبين لاغتنام الفرص التى يتيحها الحاضر والمستقبل القريب لتجاوز هذا الاشتباك وتطوير الأحوال وترقية الأوضاع والعناية بتبادل المنافع والخدمات وإعطاء كل ذى حق حقه وازدراء ما كان من كبرياء كاذبة تجتر جراحها باستمرار ، أو تخدر غفلتها وغرورها بإيلام الآخرين والتندر بإيجاعهم وأوجاعهم .

وهذا التركيز على الالتفات والإرادة والجهد لتطوير الأحوال وترقية الأوضاع يمكن بالتعليم والمثابرة عليه ، وبالثقافة والتنوير ، ثم بالحرص على العمل والمثابرة عليه فى خدمة معالجة وتجفيف العداوات التى تتقاسم المجتمع الواحد ، وهو علاج من شأنه أن يزيل التعصب والمغالاة ، وأن يجعل الفروق التى بين الديانات والملل والمذاهب فروقًا مقبولة ، من واقع أن اختلافها من واقع الحياة ، وأن هذه الفروق ينبغى التعامل معها بسعة صدور تحترم العقائد الأخرى مثلما تحترم وتؤمن بعقيدتها ، وفهم أن هذه الفروق لا تحول بين هذا أو ذاك وبين ممارسة الحياة وأنشطتها والوصول إلى ما يتمناه كل منهم من الحياة المحترمة التى تسعد الفرد على قدر سعيه وعمله وصدق عزيمته .

هذا ولا تزال توجد إلى اليوم ، بين أهل كل عقيدة دينية أو عنصرية أو جنسية لا تزال توجد هنا وهناك جيوب تعيش على التباكى والتشاكى وترديد الشائعات والتقاط وترويج المثيرات .. وقلما يوجد فى هذه الجيوب هيئات معنية بتوجيه بنى دينها أو عنصرها أو جنسها إلى اغتنام الفرص الحاضرة

والمستقبلة التى ألمحنا إليها .. وهى فرص معروفة ومتاحة ليست فى حاجة إلى أكثر من الالتفات إليها وحفز الإرادة والعزيمة لا غتنامها تحقيقا لغاية لا يختلف عليها العقلاء .

إن تنحية ومعاداة العقائد من غير العقيدة الدينية أو العنصرية أو الجنسية السائدة يعكس لدى الأقليات كآبة وصلابة ذلك الماضى الذى أفرز هذه العداوة والذى يأخذ بخناق الناس فى حاضرهم ويغيم بسحابات مظلمة على مستقبلهم .. فهذه التنحية أو الفرز تعزلهم عزلة نفسية غائرة يشعر بها عامتهم وخاصتهم ، ولا يستطيعون أن يتغلبوا عليها إلاَّ فى حدود لا تريح ولا تستأصل أصل الداء ، سيما إذا كانت مصحوبة بموانع شرعية كالزواج والتوارث أو نظامية توزيع الوظائف العامة أو غيرها من المواقع .

وربما كانت الحاجة إلى العلاج أشد وأكثر إلحاحًا لدى المنتمين إلى الأغلبية فى الجماعة إذا كانت السيادة والسلطة فى يدها .. لأنهم يرون أن تميزهم بمزايا الأغلبية وتفوقها وتقدمها على الأقليات يرونها حقًا أصيلا بديهيا لهم .. لا يقبل المناقشة بل تقضى به طبائع الأمور .. فهم يرون أنفسهم الأصل والأساس والكثرة ، وأن غيرهم فرع أو فروع تتبع الأصل وتستمد وجودها وثمارها منه ! وهذه أكثره خيال مبناه صولات العنف ومصادفاته .. وهو قليل الاعتماد على المواهب والقدرات والكفايات الحقيقية ، وإنما يستعين بما معه من الزهو والمبالغة والتماجد مع ضعف الهمّة وقلة اليقظة ، ومع غلبة الميل إلى الوهم واللهو وتضييع الأوقات والفرص ، مستغن بذلك عن منافسة الجادين فى جدهم والأيقاظ فى يقظتهم وسعيهم وفهمهم والتفاتهم ، ومنصرف عن تطلع النشطين المجتهدين إلى غدٍ أفضل نجاحًا وأوسع أفقًا وأسرع تطورًا !

من تراب الطريق (٥٢٥)

رابطة العقائد (*) (٣)

غالبية الناس ما تزال شديدة الحرص على ما ورثته من الحقوق التى تكاد تكون خالية من الواجبات .. والأغلبيات المتسيدة فى عالم اليوم ، ما تزال حتى الآن شديدة الحرص على ميراثها من حقوق لا يقابلها واجبات والتزامات نحو الأقليات بمجتمعها .. ولا تريد أن تفرط ولا أن تفلت من يدها شيئا كان لها أو لآبائها وأجدادها .. يملؤها الخوف على تميزها وتزعمها من أن يغلبها عليها الأذكياء النشطون العاملون الجادون الذين يمكن أن يتقدموا ويقتادوا من عاشوا على الغرور والكسل والغباء وقلة جدهم !!

ويبدو أن الأمور لم تعد الآن كما كانت عند الأولين .. لم تعد تسمح بأن يترك الأذكياء ذكاءهم والنشطاء نشاطهم وعملهم وجدهم وأن ينضووا تحت جناح الأغبياء المغرورين العاطلين من القدرة والعطاء .. ولم يعد أمام هؤلاء الذين ارتاحوا إلى أغلبيتهم وغرورهم ، ألاَّ أن يخرجوا من شرنقة الخمول الذى اعتادوه وألفوه ، ويقبلوا المنافسة بقوانينها ومعطياتها ، أو أن يستسلموا لزوال القوة التى ظنوا أنها لا بد وأن تدين دواما للأغلبية مهما خملت وانطفأت ، وأن يفارقوا ويرحلوا تاركين الأرض للقادرين على تعميرها وتطويرها ، أو أن يعملوا لديهم وتحت إمرة قيادة ذكائهم ونشاطهم ، لتتحول الأغلبية التى نعمت زمانا بالقوة والمزايا ، إلى سُخَرة أو ما يشبه السُخْرة لدى من تفوقوا بقوانين وأدوات الصراع !!

(*) المال ١٩/٩/٢٠١١

نعم . لم يعد الأمر كما كان ، خاصة فى البلاد المتطورة المتقدمة .. اللهم إلاَّ فى الطبقات الدنيا التى تعيش فى تخلف تام معنويا وماديا .. تكرر ما كان عليه أجدادهم فكريا وجسديا.. ومثل هؤلاء تقريبا تعيش أغلبية الناس فى أفريقيا وفى معظم آسيا وأكثر أهل أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية .. يعانون من ذلك التضاد المقلق الذى يظهر ويختفى ليظهر ثانية بين الأغلبيات والأقليات .. هذا التضاد الذى لا يريد أىٌّ من الفريقين أن يفرط فيه .. لأن كليهما يتمسك بماضيه تمسك المعتز أو تمسك الساخط الثائر عليه : هذا بأحقاده وذاك بامتيازه واعتزازه . وإلى أن تفارق هذه الملايين من البشر ما اعتادت عليه وألفته من ذلك ، وأن تنظر إلى واقعها وحاضرها ومستقبلها بعين العقل واتخاذ الأسباب ، لا بعين الغرور أو السخط واجترار الغيظ وقلة الحيلة .. لا سبيل لهؤلاء للخروج من وهدة ما هم فيه إلاَّ بأن تنسى هذه المجاميع ماضيها نسيان اليقظ الذى استيقظ من سباته وتفطن لما يجديه فى محيطه .. وركز همه وجهده على إدراكه والوصول إليه والحصول عليه .. وهذا يحتاج إلى إفاقة وإصرار ومثابرة ، وإلى سريان روح اجتهاد الصاحين الواعين الفاهمين إلى طوفان الخاملين الغافلين الأغرار الأغبياء أو المتغابين .. وبديهى فإن سريان هذه الروح وانتقالها فى تيار متواصل قوى من المجتهدين إلى الخاملين يستلزم عشرات السنين ، مع تغيير معالم المحيط إلى المزيد من التذكير بالحاضر والمستقبل ، والتقليل ما أمكن من الإحالة على الماضى وسد ذرائع الردة إليه والاتكال عليه !

وهذا يفسر ما يلاحظه المتأمل من بطء انتشار الفطنة بين البشر رغم سعة انتشار الوسائل والأدوات والآلات والأجهزة والسلع ومظاهر العمران وفيض المطبوعات والمسموعات والمرئيات من كل لون وصنف وامتداد

وسائل النقل والإعلام إلى أبعد بقاع الأرض والسرعة الهائلة فى التقليد والمحاكاة فى المآكل والمشارب والملابس وفى الزينة والزهو واللهو !!

أما ما هو داخلى جوهرى فلا يكاد يزيد ولعله يتقلص ويتخافت ويبتعد .. يخفى تراجعه نشاط ما هو خارجه بإغراءاته وبحركته ويسر تبادله وعدواه وتبديله وتغييره تبعا للأمزجة والأهواء ودواعى الكسب لدى مراكز الصناعة والتجارة التى باتت إليها السيطرة فى العالم .

إننا ضحايا دون أن نشعر .. ضحايا تركيزنا وإمعاننا فى التركيز على كل ما هو عرضى بل هامشى .. لا فرق بين الرجل والمرأة ، ولا بين الكبير والصغير ، ولا بين العالم والجاهل ، ولا بين المجرب والساذج ، ولا بين العاقل والأحمق الطائش .

وهذا التركيز على العرضى الهامشى يغوينا ببعض المنافع العاجلة التى قد نتعود على إدمان تصيدها والغرق فيها .. فيتعطل أو يختل تعاون وتساند أجهزتنا النفسية والعقلية حول وحدة ذاتنا .. هذان التعاون والتساند اللذان نتأمل بهما ونقرر ونعزم وننفذ ويكون لنا منهما مبادئ وأصول وأخلاق . وبدون ذلك نفقد دون أن ندرى قدرتنا على الإخلاص والوفاء والاتزان والصداقة والمحبة ، وما تعنيه كلمة الحكمة .. أى نفقد معظم إنسانيتنا ونبادل بقية الآدميين الذين نخالطهم أو نتصل بهم أو نتعامل معهم نبادلهم هذا الفقر الكئيب !

من تراب الطريق (٥٢٦)

رابطة العقائد (*)
(٤)

إن عالمنا الحاضر واسع المعارف الطبيعية والوضعية سعة غير مسبوقة ؛ إلى حد أنها عمت الآفاق وغصت بمنتجاته الأسواق . لكنه على سعته الهائلة فى ظاهر ما يحصله من علم وما يقدمه من إنتاج ومبتكرات وسلع من شتى الأصناف والألوان ، لا يكاد يمس أعماق الآدمى . لأنه لا ينشد ابتداءً وانتهاءً ترقية داخل الإنسان كما كان يفعل عشاق وطلاب المعرفة فى الزمن القديم .. برغم قلتهم آنذاك وقلة إمكانياتهم وقلة ما كان لديهم من الوسائل والأدوات والفرص ، بينما صار عالمنا الآن لا ينشد من معارفه فى الدرجة الأولى إلا الشهرة والسمعة والرزق والمنفعة والاتصال برجال المال والأعمال وفتح منافذ الصناعة والتجارة على كافة مصاريعها وإفساحها بلا حد .. ويكاد اهتمامنا اليوم بالمعرفة والعلم والتعلم يكاد يتوقف عند ما هو محسوس وخارجى وعرضى وعملى وتكنولوجى ويسوقنا سوقاً شديداً باستمرار إلى خارج كل منا .. أى إلى ما ليس لنا عليه سلطان حقيقى .. سلطان يمكن لوعينا وفهمنا وإرادتنا وذات كل منا أن تحدد وتراقب خطواتنا فيه مراقبةً متأنية فعالة منظمة محققة لتوازن مطرد فعال بين داخلنا وخارجنا .. ونظراً لفقد ذلك التوازن بات كل تقدم أو تطور فى عالمنا ينطوى على مكنون من المخاوف وإرهاصات التخلف تهدد بدمار توشك أسبابه أن تنفجر وتطلق من التداعيات ما لا قبل للآدميين بكفاحه والصمود فى وجهه !

(*) المال ٢٠/٩/٢٠١١

ومن الملحوظ ، أن الروابط بين مجاميع الأفراد فى جماعة معينة ؛ تميل إلى ترجمة نفسها إلى عقائد وأعراف فكرية ومادية ؛ لتعود فتترجم نفسها إلى روابط اجتماعية أكثر تركيبا وتعقيدا .. وتتكرر هذه العملية طردًا وعكسًا بغير انقطاع ما بقيت الجماعة محتفظة بوجودها . ولذا كانت محاولات تفسير العقائد أو المعتقدات تفسيرا يردها إلى أصول بسيطة قابلة للفهم الواضح غير المشوب بالافتراض والخفاء والغموض كانت هذه المحاولات بالغة الصعوبة والتعقيد ، لكنها لم تثن الآدميين عن ممارستها بالقدر المتاح فى كل عصر حسب ظروف الزمان والمكان والمحيط .. لأن البشر لا يكفون عن تقليب النظر والفهم ولا عن تعديله وتغييره ؛ كلما رأوا الفرصة مهيأة أمامهم لذلك .

وجمود عقل الآدمى ، مهما اشتد ، هو جمود نسبى .. لأن العقل البشرى إنما يعيش على احتمالات يعايشها .. وهى كامنة ومتغلغلة فى صميم يقينياته وثوابته .

ومعايشة الاحتمالات والاعتماد الدائم الهائل عليها ، جرى ويجرى بصورة معقدة دائبة التعقيد والتركيب .. وهى التى حفرت فيما يبدو تلك الهوة العميقة جدا بين الآدمى وبين بقية الأحياء ، رغم التماثل العجيب الذى بينه وبين الثدييات العليا فى الجسد والغرائز .. وبرغم هذا التماثل ، لم تستطع أى طائفة أو فرد من هذه الثدييات العليا عبور تلك الهوّة التى تفصلها عن الآدميين ومشاركة وعى الآدمى واحتمالات وعيه .. كما لم يستطع الآدمى إلغاء وجود هذه الهوّة أو نسيانها على أى نحو فى صلاته وتعامله مع كافة الأحياء الأخرى التى تسيدها بحكم ما له من عقل وذكاء وفطنة .

ويبدو أننا ندين إلى الاحتمالات التى ليس لها حد أو نهاية ؛ ومعايشتها والالتصاق التام بها ، ومقابلتها ومواجهتها .. ندين لهذه الاحتمالات بكل ما يكون معنا مما نسميه حضارة وتمدنا ومعرفة وعلما وفنا وذوقا وفكرا ورقيّا فى آدابنا وسلوكنا وأخلاقنا ، وفى مساكننا وطعامنا ولباسنا ، وفى كل ما يخالط حياتنا فى عملنا وحركتنا وسعينا وراحتنا ولهونا ورياضاتنا . ولو توقفت مسيرة هذه الاحتمالات غير المحدودة التى نعيش بها ونواجهها ونعايشها ، لتوقفت تماما حياتنا التى نعرفها ، وتوقف معها كل ما نسميه آدميتنا وبشريتنا وإنسانيتنا .

ودور العقائد ، والرابطة التى تربط بين أهل كل عقيدة ، بمثابة السقف الذى يتطامن به وتحته معظم الآدميين فى حركتهم وسعيهم فى خضم الحياة التى لا تبقى على حال ، وتجرى أقدارها فى صيرورة دائمة يتوقف الأحياء عن الحياة إذا لم يتفهموها ويلاحقوا حركتها .